

**المشكلة الجزئية الرابعة** : في الذاكرة و الخيال

**العنصر** : طبيعة الذاكرة

**السؤال** : هل الذاكرة وظيفة مادية أم هي وظيفة نفسية ؟

**المقدمة** : ينفرد الإنسان عن غيره من المخلوقات بجملة من الملائكة الذهنية التي تساعده على تحصيل المعرفة وتحقيق التكيف مع العالم الخارجي ومن بين هذه الملائكة الذهنية نجد الذاكرة التي تقوم بحفظ صور الواقع الماضي واسترجاعها في الحاضر مع الوعي بها من حيث هي وقائعPast ونظرا للأهمية التي تكتسيها الذاكرة لدى الإنسان فقد حضيت باهتمام العديد من المفكرين والفلسفه وعلماء النفس نتج بشانها اختلاف في المواقف وتبادر في التصورات لاسيما حيال **تفسير طبيعتها** إذ يعتقد البعض بأن الذاكرة ظاهرة بيولوجية مرتبطة بالبدن في حين يرى آخرون بأنها ظاهرة نفسية خالصة لا علاقة لها بالجسد وفي ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : **ما طبيعة الذاكرة ؟ هل هي ظاهرة مادية من اختصاص الدماغ أم هي ظاهرة نفسية روحية ؟**

### **العرض ( محاولة حل المشكلة ) :**

**1 - عرض منطق الأطروحة** : يرى أنصار النظرية المادية وفي مقدمتهم **تيلودول ريبو** ورونيه ديكارت وتبين بأن الذاكرة ذات طبيعة مادية لا تختلف في وظائفها عن وظائف الظواهر الفيزيائية فهي تمتلك خاصية القابلية للاحتفاظ بآثار الذكريات المسجلة في خلايا الدماغ مثلاً تمتلك قطعة الحديد خاصية الانصهار والتمد والورقة خاصية القابلية للانثناء والطي فالذاكرة في نظرهم تابعة للجسم من اختصاص الدماغ فهي وظيفة يقوم بها الجهاز العصبي وبالتالي فالذكريات هي عبارة آثار مادية مخزنة في خلايا القشرة الدماغية بفعل التكرار إذ يمكن إثارتها مرة أخرى بفعل منبهات الحاضر ( كلمة ، إشارة ، صورة ، فكرة ، مكان ... ) وفي

**هذا يقول ريبو** : (( إن الذكريات تخزن في الدماغ وإن كل خلية تخزن معلومة معينة )) فالمناطق الدماغية في نظر **ريبو** تتلقى المعلومات عن طريق حاسة السمع فتحفظ بسرعة لكنها عرضة للنسفان بسهولة وإذا أراد الإنسان أن يثبتها لابد وأن ينقلها إلى ما يعرف بالذاكرة قصيرة المدى بفضل الانتباه والتركيز (الوعي) تحفظها لمدة قصيرة وعن طريق التكرار تنتقل إلى ذاكرة طويلة

المدى وتنقش على الدماغ فترك آثاراً فيه

وهذا ما نجده أيضاً عند ابن سينا الذي قال : (( إنها قوة محلها التجويف الأخير من الدماغ من شأنها حفظ ما يدركه الوهم من المعايير الجزئية )) فنجده يقسم تجاويف الدماغ إلى ثلاثة مناطق مقدم وأوسط ومؤخر الأول مسؤول عن حفظ صور الأشياء الحسية والأخير يحتفظ بمعانٍ تلك الصور أي بالذكريات فوظيفة الذاكرة بهذا المعنى هي الحفظ والتذكر

وهذا الرأي أيضاً نجده عند رونيه ديكارت الذي يقول : (( إن الذاكرة تكمن في شايا الجسم )) والمقصود بذلك هو الدماغ وهذا ما عبر عنه تين بقوله : (( المخ وعاء لحفظ الذكريات )) وبحسبه أيضاً (تین) بأن الذكريات محفوظة في الدماغ كما تحفظ الموسيقى في الأسطوانة وأي تلف مادي يصيب الأسطوانة يتلف المعلومات المحفوظة بها والأمر نفسه ينطبق على الذاكرة فإذاً أي جزء من الدماغ سيؤدي إلى تلف كلي أو جزئي لبعض الذكريات

ويستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

**الحججة الأولى :** توصل ريبو إلى أن اتلاف خلايا الجملة العصبية نتيجة حادث ما يؤدي مباشرةً إلى فقدان جزئي أو كلي للذاكرة وهذا من خلال استناده إلى أعمال وتجارب دولاي عن الفتاة التي أصيبت برصاصة في منطقة الفص الجداري الأيمن (منطقة من الدماغ) نتج عن ذلك فقدانها للمعرفة الحسية اللميسية في الجهة اليسرى وبعد تعصيب عينيها وضع في يدها اليسرى مشط فووصفت جميع أجزاءه إلا أنها لم تستطع التعرف عليه وهذا يعني أنها فقدت ذكرى المشط

**الحججة الثانية :** كما استند ريبو إلى التجربة التي قام بها الجراح الفرنسي جورج بروكا على أحد الحيوانات حينما قام بتخريب منطقة في دماغ الحيوان مسؤولة عن حفظ الذكريات وتثبت تجارب بروكا أن تزيفاً دموياً في منطقة التلقيق الثالث من الجهة الشمالية للدماغ يولد مرض الحبسة ( وهو مرض يفقد صاحبه قوة الكلام من غير أن يكون هناك خلل في أعضاء الصوت ) وأن فساد التلقيق الثاني من يسار الناحية الجدارية يولد العمى اللفظي ( وهو عدم فهم معانٍ الكلمات ) وبهذا فإن الدماغ عند ريبو وعاء للذكريات وأن هذه الأخيرة تشبه الأفعال الآلية أي العادة وهنا يقول : (( إن الذكريات الراسخة هي الذكريات التي استفادت من

**الحجـة الثالثـة :** كما أن الذاكرة ذات أصول مادية مرتبطة بالأجهزة العضوية والدليل على ذلك أن الذاكرة تتعدد بتنوع الحواس إذ هناك ذاكرة بصرية وذاكرة سمعية وذاكرة ذوقية .... الخ

**الحجـة الرابـعة :** وتبـت التجـربـة أن اختـلال الهـضم ودورـان الدـم والتـنفس يـؤثـر عـلـى التـذـكـر إذ هـنـاك بـعـض المـوـاد المـهـيـجة لـلـجـمـلة العـصـبـية أو المـسـكـنـة تـنبـهـ الـذـاـكـرـة أو تـضـعـفـها فـتـناـول بـعـض الأـغـذـيـة يـسـاعـد عـلـى تـنشـيـط الـقـدرـة عـلـى استـرـاجـاع الـذـكـرـيات كـتـناـول السـمـك الغـنـي بالـبـروـتـين أو المـوز أو العـسل... وـهـذـا ما أـثـبـتـهـ العـلـمـ الـحـدـيـثـ

**الحجـة الخامـسـة :** كما اـعـتـمـدـ رـيبـوـ عـلـى حـجـةـ وـاقـعـيـةـ فالـوـاقـعـ يـدلـ عـلـى أنـ الـأـشـخـاصـ الـمـسـنـينـ يـجـدـونـ صـعـوبـةـ فـي استـرـاجـاعـ ذـكـرـياتـهـمـ الـمـاضـيـةـ نـتـيـجـةـ مـوـتـ خـلـاـيـاـ الـقـشـرـةـ الـدـمـاغـيـةـ لـدـيـهـمـ

**النقـد :** لاـشكـ أـنـ لـلـجـوـابـ الـعـضـوـيـةـ أـثـرـ فـي تحـدـيدـ طـبـيـعـةـ الـذـاـكـرـةـ وـتـفـسـيرـ بـعـضـ جـوـابـهـاـ غـيـرـ أـنـ ذـكـرـةـ ظـاهـرـةـ مـادـيـةـ خـالـصـةـ مـسـتـقـلـةـ عـنـ جـوـابـ الـنـفـسـيـةـ فـلـوـ كـانـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ لـأـدـتـ إـلـاـصـابـاتـ الـدـمـاغـيـةـ إـلـىـ فـقـدانـ ذـكـرـياتـ بـصـفـةـ نـهـانـيـةـ لـكـنـ الـمـلاـحـظـةـ تـثـبـتـ أـنـ الـمـصـابـ لـاـ يـفـقـدـ ذـكـرـياتـهـ بلـ أـنـ مـاـ يـعـانـيـهـ هـوـ صـعـوبـةـ فـيـ التـذـكـرـ وـالـدـلـيلـ عـلـىـ ذـكـرـةـ ظـاهـرـةـ مـادـيـةـ خـالـصـةـ اـنـفـعـالـيـةـ وـهـذـاـ يـبـطـلـ التـفـسـيرـ الـمـادـيـ لـلـذـاـكـرـةـ ثـمـ إـنـ الـوـاقـعـ يـوـكـدـ أـنـ الـمـرـءـ قـدـ يـفـقـدـ ذـكـرـياتـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ سـلـامـةـ الـمـخـ وـعـدـمـ تـعـرـضـ الـدـمـاغـ لـأـيـ صـدـمةـ وـهـذـهـ الـحـالـةـ تـوـكـدـهـاـ تـجـربـةـ الطـالـبـ اـثـنـاءـ الـامـتحـانـ حـيـثـ يـعـزـزـ عـنـ اـسـتـرـاجـاعـ مـعـارـفـهـ رـغـمـ سـلـامـةـ دـمـاغـهـ مـنـ أـيـ خـلـلـ كـمـاـ أـنـ التـكـرارـ لـاـ يـكـوـنـ فـيـ مـطـلـقـ الـأـحـوـالـ سـبـبـاـ فـيـ تـثـبـتـ ذـكـرـياتـ ذـكـرـةـ أـنـهـ تـوـجـدـ ذـكـرـياتـ لـاـ تـتـكـرـرـ وـمـنـ شـدـةـ وـقـعـهـاـ فـيـ الـنـفـسـ تـصـبـحـ ذـكـرـىـ لـهـذـاـ قـالـ بـرـغـسـونـ عـنـ رـيبـوـ بـأـنـهـ أـخـلـطـ بـيـنـ الـذـاـكـرـةـ وـالـعـادـةـ

**2 - عـرـضـ نـقـيـضـ الـأـطـرـوـحةـ :** وـعـلـىـ النـقـيـضـ مـنـ الـمـوـقـفـ الـأـوـلـ يـرـىـ اـنـصـارـ الـنـظـرـيـةـ الـنـفـسـيـةـ وـفـيـ مـقـدـمـتـهـمـ الـفـيـلـسـوـفـ الـفـرـنـسـيـ هـنـرـيـ بـرـغـسـونـ بـأـنـ الـذـاـكـرـةـ تـرـجـعـ إـلـىـ خـصـائـصـ شـعـورـيـةـ نـفـسـيـةـ فـهـيـ عـدـلـيـةـ نـفـسـيـةـ وـاعـيـةـ قـوـامـهـ الشـعـورـ وـهـوـ مـاـ يـجـعـلـهـ جـوـهـرـ روـحـيـ مـحـضـ حـيـثـ يـرـىـ بـرـغـسـونـ أـنـ الـاحـفـاظـ بـالـمـاضـيـ يـتمـ وـفـقـ صـورـتـيـنـ مـخـلـفتـيـنـ جـوـهـرـيـاـ فـقـدـ يـكـوـنـ فـيـ صـورـةـ آـلـيـةـ مـخـزـونـةـ فـيـ جـسـمـ وـقـدـ يـكـوـنـ فـيـ صـورـةـ ذـكـرـياتـ نـفـسـيـةـ مـسـتـقـلـةـ عـنـ الـدـمـاغـ وـتـسـمـىـ طـرـيـقـةـ الـاحـفـاظـ الـأـوـلـىـ بـذـاـكـرـةـ الـعـادـةـ وـهـيـ ذـاـكـرـةـ بـيـولـوـجـيـةـ حـرـكـيـةـ تـقـومـ عـلـىـ أـسـاسـ الـبـدـنـ وـتـأـخذـ شـكـلـ

عادات آلية تم اكتسابها عن طريق التكرار كالحفظ عن ظهر قلب وأما الصنف

الثاني فيسميه بـ **برغسون** بذاكرة الذاكرة أو الذاكرة النفسية الشعورية وهي ذكرة

نفسية ذات طبيعة روحية مستقلة تماماً عن الجسم والدماغ فتقوم بتصوير الماضي واستحضاره بدون إعادة أو تكرار فهي تنقلنا إلينا في صورة حالات نفسية ومثالها

أن حفظ درس يتطلب تكراره عدة مرات بواسطة التسميع الذاتي والتكرار يكسب عادات حركية تساعد على انطباع الدرس في الذهن واسترجاعه يتم بواسطة تلك

العادات الحركية غير أن محاولة استرجاع الطريقة التي تم الحفظ بواسطتها وما

صاحب ذلك من ملابسات كالقراءة الأولى نوع الخط الذي كتب به الدرس مكان

الحفظ... الخ هي عملية نفسية ولا تتم بواسطة الآليات الحركية لأن الذاكرة

الحركية تعتمد على التكرار أما الذاكرة النفسية فهي نوع من التصور قائم في

الزمان وبهذا فالعادة جسمية والذاكرة نفسية ويحكم **برغسون** أن الذاكرة الحقيقية هي الذاكرة النفسية وليس ذكرة العادة ومنه لما كانت ذكرة الذاكرة مرتبطة

بالشعور والنفس فلابد أن تكون ذو طبيعة نفسية روحية خالصة لا علاقة لها

بالجسد المادي حيث يقول : (( إن الشعور إنما يعني أولاً وبالذات الذاكرة )) وهذا

ما أغفل عنه أصحاب التفسير المادي للذاكرة لأنهم أخلطوا بين النوعين السابقين واكتفوا بالذاكرة الحركية مهملين الذاكرة النفسية الأهم منها وثبتت **برغسون** هذا

التمييز من خلال مقارنته بين خصائص كل نوع فالإصابات الدماغية في الجهاز العصبي لها تأثير على الآليات الدماغية التي تحفظ ذكرة العادة بينما ليس لها أي

أثر على الذكريات النفسية كما أن الاكتساب في النوع الأول يكون بالتدرج

والتكرار أما الاكتساب في الثانية فيكون دفعه واحدة وبدون تكرار مثل إدراكنا لحدث مرور مروع ماضي فلا يستدعي تكراره كي يكتب كذلك قدرة استرجاع

ذاكرة العادة مرهونة بمدى تكرارها لهذا يعمد التلميذ أثناء تحضيره لشهادة

البكالوريا إلى تكرار المراجعة حتى يتمكن من استرجاعها يوم الامتحان بينما

استرجاع الذكريات على مستوى الذاكرة النفسية مشروط بمدى تأثيرها على نفس

الإنسان ودرجة الألم أو اللذة التي تخلفها الحادثة ومن هنا يبدوا الفرق بين هذين

النوعين واضحًا وهو ما أغفله التفسير المادي الذي ينطبق على النوع الأول فقط بينما حقيقة الذاكرة وجوهرها هو النوع الثاني أي الذاكرة النفسية التي ترتبط

بالنفس والشعور وهو ما جعل **برغسون** لا يميز بين الذاكرة والشعور حيث

يقول : (( إن الشعور هو ذاكرة أعني أنه حفظ للماضي في الحاضر وتجمع

### للماضي في الحاضر ))

وعليه فالذاكرة بالنسبة لبرغسون ما هي إلا استيقاظ الشعور من جديد وإحياء للماضي فالذكريات في نظر برغسون موجودة في الفكر ( الأن العميق ) لذا يقول فرنسي : (( لما تذكر ما فعلناه فتح نراه وتعيشه وتكون في الماضي الذي تدركه بدون واسطة )) ويبعد برغسون تفسيره لعملية التذكر بجملة من المبررات المبنية على انتقاده لنظرية ريو فالدماغ في نظر برغسون أداة لاستحضار الذكريات وليس للاحتفاظ بها وبالتالي إصابة في الدماغ لا يؤدي إلى زوال الذكريات بل إلى ضعف التذكر وفقدان التذكر في نظر برغسون راجع إلى عدم الإرادة في الاسترجاع وليس فقدان وزوال الذكريات لأن الذكريات التي لا تظهر موجودة في اللاشعور والذكريات التي تظهر موجودة في الشعور

**الثالث :** فعلا هناك فرق بين الذاكرة العادة والذاكرة النفسية إلا أن الفصل بين ما هو نفسي وما هو عضوي أمر مبالغ ، كما أن هذه النظرية قللت من دور الدماغ في عملية التذكر وقللت من دور التكرار مع العلم أن ترسيخ وحفظ ذكرى ما متوقف على التكرار بالدرجة الأولى كما أن الذاكرة القوية بحاجة إلى جهاز عضوي سليم ومن ثم أن برغسون قد أنكر وجود الذكريات في الخلايا العصبية واستبعد تماما دور الجسم والمجتمع في تكوين الذاكرة الحقيقة، فضلا عن ذلك فإن كانت نظرية برغسون قد فسرت لنا كيفية حفظ الذكريات ولكن كيف نفسر فقدان الذاكرة أثناء تخريب منطقة البروكا الدماغية؟ وكيف نفسر قوة الذاكرة وضعفها مع قوة الجهاز العصبي كما هو الحال بين الطفل والمسن؟

**التركيب :** كلا الموقفين السالفين سواء أصحاب التفسير المادي أو النفسي قد اهتموا بجانب واحد من طبيعة الذاكرة مما يجعل موقفهما ذاتي وهو ما يدفعنا إلى التجاوز ونجد التفسير الاجتماعي يقدم طرح جديد تجاوزي حيث يرى هالفاكس أن الذكرى هي حادثة تتكون ثم تخزن وتستحضر في إطار الجماعة فقط فلولا المجتمع لما تم تشكيل أي نوع من الذكريات لأنها في النهاية ما هي إلا حوادث اجتماعية وهو ما يجعل من الذاكرة ذات طبيعة اجتماعية سوسيولوجية حيث يقول هالفاكس

: (( إن الجماعات التي أنا جزء منها تقدم لي في كل آن الوسائل الكافية باعادة ترتيب هذه الذكريات ))

**الخاتمة ( حل المشكلة ) :** ومن كل ما سبق من تحليل نستنتج أن الذاكرة ليست ظاهرة بيولوجية خالصة وإنما هي وظيفة عقلية ونفسية معقدة يساهم في تركيبها عدّة عوامل منها العامل الفردي بأبعاده النفسية والعقلية والبيولوجية والعامل الاجتماعي وما يتضمنه من أطر وقيم اجتماعية ومنه يمكن القول أن الذكريات تتكون بفضل التأثيرات النفسية والمادية والاجتماعية حيث لا يمكن فصل عامل عن الآخر